وبناء دولتها المستقلة الحرة والموحدة · واحساسها بهذا العجز والقصور ، ترتب عليه تزايد مشاعر الارتباط بالثورة البورجوازية العالمية ، وعقد الامال على انتصارها ، والانبهار بانجازاتها في البلدان المجاورة وهو ما ادى بدوره الى التعلق بمفاهيم « العالمية » التي شاعت في فكر الاستنارة ، ويقول هرتز ان الشعور العام بين الطبقات المتعلمة في المانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان عالميا (١٢) ·

ولكن ذلك ادى في نفس الوقت الى نمو ما سمي بالقومية الالمانية الثقافية التي مهدت بدورها لظهور القومية السياسية اثناء حرب التحرير · والحقيقة ان فلاسفة الاستنارة ومفكريها الالمان حولوا عجز طبقتهم في الواقع العملي الى نجاحات وانجازات ضخمة في الفكر والثقافة وحلت « القومية الثقافية » والاعتزاز المفرط بالثقافة والفكر الالماني محل القومية السياسية المحبطة والمفتقدة ، ومحل الوحدة القومية التي بدت بعيدة المنال ·

ولنا ان نقدر الاثر البعيد لهذا الفكر الالماني التقدمي في الاساس ، سواء في دعواته الى العالمية ، او القومية الثقافية في الفكر اليهودي في المانيا ، وفي شرق اوروبا حيث امتد نفوذ هذا الفكر · لقد كانت له جاذبيته الخاصة بين مثقفي اليهود وفئاتهم المستنيرة · فالمفهوم العالمي يتسع ليحتضن كل الثقافات دون تمييز ، ويرتفع على كل التحيزات القومية ضيقة الافق ، كما ان مشاعر الاعتزاز والفخر بالثقافات القومية من الجانب الاخر ، يفسح المجال ايضا للاعتزاز بالتراث الثقافي الانساني اليهودي ·

ولكن هذا المفهوم بالذات ، مفهوم القومية الثقافية ، انقلب الى نقيضه عند رواد الفكر الصهيوني الاول ، مع طغيان موجة القومية الرجعية في المانيا واوروبا عموما · فقد وجد هؤلاء المفكرين الصهيونيين الاول في مفهوم القومية الثقافية مبررا وسندا للمناداة بقومية اخرى تبدو مشابهة في الظاهر ، وتفتقد الوحدة هي ايضا ، وهي القومية اليهودية · نجد هذا المفهوم عند هس الالماني وسمولينسكين الروسي (١٨٤٢ ـ ١٨٨٥) في دعاواه عن الامة الروحية التي ترتكز الى التوراة وعند اليعازرين يهودا الليتواني (١٨٥٨ ـ ١٩٢٣) ، والذي كان يكتب في مجلة الفجر التي كان يصدرها سمولينسكين ويعتنق نظرية القومية الثقافية · وقد عمل بدأب واصرار على أحياء اللغة العبرية الحديثة ، واسرائيل عنده شعب روح وكذلك نجدها عند ليبينسكر (١٨٢١ ـ ١٨٩١) وغيرهم وتكاد تكون قاسما مشتركا شائعا بين هذا الرعيل الاول من المفكرين الصهيونيين (١٣) وكأنما بهؤلاء المفكرين الرجعيين السلفيين ، والذين وقفوا في مواجهة تيار الاندماج اليهودي الجارف ، قد وجدوا في مفهوم القومية الثقافية الالماني ضالتهم لينصبوا في قالبها قوميتهم المتخيلة التي تفتقد